

الوعظ في أدب ما قبل الإسلام¹

Preaching in Pre-Islamic Literature

كريم الباسطي

جامعة عبد المالك السعدي، تطوان - المغرب

kelbaciti@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/01/26 تاريخ القبول: 2020/03/10 تاريخ النشر: 2020/03/30

ملخص البحث:

Abstract:

This article deals with preaching in a historical period before Islam under a particular type of literature known as "AHNAF literature". Starting from a preliminary conception, where preaching accompanies the need of humanity for reform. Wherever there were discrepancies in beliefs, devotional rituals, and moral values, the need for a preacher gratified with the accumulated remains of missed heavenly beliefs or innate tendencies contemplated existence and its creator. Then, it seems a necessity to introduce the term Alhanifia before tackling the topic.

The researchers treated the subject of preaching from the twin principles of literary forms: rhetoric, and poetry; provided an analysis of samples, representing each form, and searched particular features for each type..

يعالج هذا البحث موضوع الوعظ في مرحلة تاريخية سابقة عن الإسلام ، في أدب ما يعرف بأدب الأحناف، منطلقا من تصور بدئي يجعل الوعظ قرين الحاجة البشرية للإصلاح، فحيثما كان هناك خلل في العقائد والطقوس التعبدية والقيم الخلقية كانت الحاجة إلى الواعظ المنتشع بما تراكم لديه من بقايا عقائد سماوية فائتة أو نزعات فطرية تتأمل في الوجود وواجده. الشيء الذي استدعى ضرورة وضع فرش أولي لمصطلح الحنيفية قبل اللجوء للموضوع.

وقد اشتغل البحث على تيمة الوعظ في شكلين أدبيين متميزين هما الخطابة والشعر، وعرض بالتحليل لنماذج ممثلة لكل شكل، ووقف عند الخصائص المائزة لكل طرف.

الكلمات المفتاحية:

Keywords: Preaching; Pre-Islamic; Alhanifia; rhetoric; poetry

الوعظ؛ ما قبل الإسلام؛ الحنيفية؛ الخطابة؛ الشعر،

مقدمة:

• الحياة العامة عند العرب:

ساد العرب نظام قبلي في بيئة صحراوية متعدد الطبقات يخضع لقواعد عرف اجتماعي وسياسي متصل بحياة الرحل في الغالب الأعم. جمع في أعرافه بين قيم نبيلة وفضائل معهودة وبين حماية عصبية رعاء محركها نزوع نحو أصولية مفرطة العُجب بذاتها، ولُغتها هي السنان. يعيش الأعرابي وهو في السلم يبحث عن مواقع الماء ومنابت الكلاء، وفي الحرب يغير ويسلب، وبين الحالين نشأت المفارقة والمنافرة وشعر الحماسة. وفي وجدانه تعددُ المعتقد الديني وتنوعه بين ديانة سماوية ووثنية وبقية باقية من دين ابراهيم عليه السلام. الأعرابي الواعي المتأمل يتبصر في أمور الحياة، ويعمل عقله ويتفكر في الوجود والعدم، ويعتبر بالغابرين الهلكة أين مضوا وما اجتازوا، وأبلغه هذا التفكير المضني والسؤال المحير إلى إدراك حقيقة جدلية الإنسان والحياة والموت، ففزع إلى الغافلين يقرع آذانهم تنبيها وتبصرة. وجاءت عظاته خواطر وتأملات سانحة في الكون والحياة، ونظرات بعين بصيرة إلى كنه الأشياء وعمق حقائق الأمور، وهي وإن لم تعد البساطة فإنها مركوزة في صميم السؤال عن سر الوجود وجوهر الدين، وإن أتت مفككة مبعثرة لا يجمعها منهج فكر ولا تحتكم إلى رؤية شمولية لمنظومة الوجود قيما وأخلاقا وآدابا واعتقادا وجادة تدن، فإن ما يشفع لورودها كذلك قلة الاشتغال بالفلسفة النظرية والعلم واغترافها من روح التجربة الحية.

إصلاح أو وعظ أو حنيفية:

أنف كثير من الباحثين في الأدب ما قبل الإسلام بصفة عامة عن أن ينعتوا ما ورد فيه من عظات بصفة الوعظ، وإن فعل بعضهم ذلك لم يقرنها بالدين، ومن قرنها جعل أصحابها من

شكل الوعظ وما زال في تاريخ الأمم خطابا نوعيا قائما على التوجيه وإصلاح ذات البين، ومركزيته تعود أساسا إلى احتياج الناس إليه بفعل دواعي التراخي والغفلة والجهل أحيانا. وقد اتخذته الدعاة، وإن لم يتصلوا أساسا بمذهب في الاعتقاد واضح جلي، وسيلة لإقناع الغير واستمالتهم، وتوسلوا لتحقيق هذه الغاية بكل الأشكال الأدبية التي تعاهدوها.

وسنعمل في هذه المقالة على رصد الوعظ في مرحلة تاريخية مهمة وهي قبل الإسلام، معتمدين على الوصف والتحليل للأشكال الأدبية التي جعلت الوعظ غرضها.

ويشكل أدب ما قبل الإسلام وثيقة تاريخية ومدونة معرفية سُجل فيها كل شيء عن اللغة والتراث والجغرافيا والمعلومات التاريخية وعن الحضارة والفن والمعتقد الفكري والقيمي والديني، إذ نجد فيه تاريخا وذكرًا للديانات السائدة وأنواع التلبيات التي تتنوع بحسب القبائل، والكثير من المفاهيم مثل "الكهانة والنبوءة والشياطين والأغوال والطب الغيبي والاستسقاء والهجاء والقلمس والحازي والناسي"²

وإذا كان موضوع الوعظ هو الدين في شموليته، وكان من دلالات الدين "القهر على الطاعة والتذلل والخضوع بحيث يتعود المرء على ذلك فيصبح لديه إلفا وسلوكا متبعا وعادة"³، ويشمل

• جانبين متداخلين أحدهما عقيدي وثانيهما طقوسي عبادي، فإن البحث عن الوعظ في هذه المرحلة قبل الإسلام سيفضي بنا إلى الوقوف عند أدب الأحناف شعرا وخطابة بعد أن نعرض في اقتضاب موجز لحياة العرب.

9. قالوا: فإذا جمع الحنيف مع المسلم فهو الحاج أو المختن.

10. أو الحنف هو الاختتان وإقامة المناسك وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمت والخالات⁵

وترجع جذور الحنيفية إلى نبي الله إبراهيم الذي سمانا بالمسلمين، قال تعالى: "ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس"⁶ ومن هنا كانت الحنيفية أصلا ثابتا للإسلام، والإسلام امتداد تاريخي وزمني

وتحذرات منها، لذلك وصف الإسلام بأنه الدين الحنيف، وشريعته هي الحنيفية السمحة.

والحنيفية خصيصة بإبراهيم عليه السلام، إذ نبذ الأصنام واعتزلها وترفع عن الموبقات والدنيا ووجد الله اعتقادا، فكان حنيفا مسلما وما كان من المشركين وكان أبا روحيا للمسلمين.

والمعلوم تاريخيا أن جل الأحناف عاش قبل ظهور الإسلام وبعضهم أدركه، "وبعضهم الآخر تنصر مثل عدي بن زيد العبادي وأرباب بن رثاب"⁷ ولم يصدر في تألههم عن تصور اعتقادي موحد ولا يشكلون حلقة متناقضة ومتكاملة، وإنما الذي ألف بينهم هو:

● جامع عقيدي تمثل في:

. الدعوة إلى التوحيد ورفض عبادة الأصنام وتعدد الآلهة.

● جامع طقوسي تعبدى ذو مضمون خلقي تمثل في:

. الدعوة إلى القيم الأخلاقية البديلة، مثل:

. نبذ الخمر والأعمال المنكرة كالوادة وتزوج

امراة الأب.

الحنيفية المتألهين، بصفتهم حركة فردية لا جماع يؤالف بينها لكي تكون مؤثرة وفاعلة، ومنهم من جعل فعل الوعظ فعلا إصلاحيا ذا وجوه اجتماعية وإنسانية كما فعل الباحث محمد أبو زهرة وهو يهتم بتقسيم موضوعات الخطابة في هذه المرحلة إذ جعل من موضوعاتها موضوع الدعوة إلى الفضيلة ونبذ الخرافات، يقول: " إذ وُجد من العرب مصلحون حكماء، رأوا ما عليه أقوامهم، من انحدار في بعض الشرور وامتلاء رؤوسهم بالخرافات والأوهام الصادرة عن الجهل الموبق ... ومن هؤلاء قس بن ساعدة، وجمع من خطباء عبد القيس وإياد وأكثم بن صيفي وكعب بن لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم."⁴

قويض الوعظ هنا بمفهوم الإصلاح في بعده الاجتماعي والديني والإنساني، وكأن الإصلاح الذي هو غاية قسيم لفعل خطابي هو وسيلة في مبدئه، كما أننا نستشف تحرجا من الباحث يستبعد فيه أن يكون الوعظ في مرحلة ما قبل الإسلام.

● الحنيفية:

تمت مقارنة مفهوم الحنيفية بدلالات متعددة تجمع بين المعجم والاصطلاح، وتراوحت في مجملها بين أقوال مختلفة تجمل في كون الحنيف هو:

1. "هو المائل عن الأديان كلها قال ابن عباس.

2. أو المائل عما عليه العامة، قاله الزجاج.

3. أو المستقيم، قاله بن قتيبة.

4. أو الحاج، قاله ابن عباس وابن الحنفية.

5. أو المتبع، قاله مجاهد.

6. أو المخلص، قاله السدي.

7. أو المخالف للكل، قاله بن حجر.

8. أو المسلم، قاله الضحاك.

. الامتناع عن أكل قربان مدفوعة للأوثان ومذبوحة لغير الله.

. تجنب الناس وتعرف دين ابراهيم الحنيف والتأمل في الكون.

. التنسك والانصراف إلى التعبد والسياسة طلبا للدين الصحيح.

وأشهرهم في مكة " ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل"⁸.

ولم تشكل الحنيفية ظاهرة موسعة ذات انتشار، وإنما كان طابعها فردانية متألهة، وخلصا ذاتيا يطلب الفكك من شرك وثنية فجأة، وهو ما جعل تأثيرها في الجماعة ضئيلا وغير ذي بال، وبفعل قلة فعاليتها أثرها في المجتمع الجاهلي لم تتعرض لأية مقاومة ولم تحارب، ومادامت حركتها فردانية فإن الحفاظ على معالمها ومزاياها لم يتحقق بفعل اختلاطها مع مرور الزمن وتقادم العهد بعادات وتقاليد الشرك التي أضحت مكونا من عناصرها.

وفي كثير من الأحيان شكلت الحنيفية مرحلة بدئية عند أصحابها يعتقدون بواسطتها من المؤلف والمعتاد عقيدة عند الأغلب، وينحازون بعد مرحلة الاستجلاء هذه والكشف عن سر الوجود وكيئونة الذات وحقيقة المبعث إلى معتقد آخر يرسخون فيه ما وقر في ذوات أفكارهم، خاصة وأن مرحلة البحث تصطدم بقلق واضطراب وجوديين نابعين من عدم الارتواء المعرفي بسبب كمون أسئلة حارقة استعصيت على الإجابة، فكان الاعتقاد المسيحي ملبيا لهذا الظما. وهذا ما يعتقد أنه حدث لورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش الذي أسلم ثم تنصر.

ولا يهمننا في هذا التأطير، أن نسعى إلى تمييز الأحناف عن الكتابيين وخاصة المنتصرين

منهم، لتضارب الروايات أولا، ولكون هذه النصرانية سطحية غير موعلة في الإشكالات اللاهوتية المطروقة كإشكال ألوهية عيسى من آدميته، ثم لأن رحلة الاكتشاف ومحنة السؤال لم تُجَوِّزْ إلى نهاية واحدة وإن كان محورها هو فكرة الخلاص من المعتقد الشرقي.

وهي في عمومها أي الحنيفية لم تستطع أن تفك رباطها عن مظاهر الوثنية، فشابتها تلاوين منها واصطبغت ببعض مياسمها.

وقد استوجب شيوع تفسخ التوحيد الربوبي، قيام ردة فعل تصحيحية تنادي بالتوحيد مقابل التعدد وتخاصم القيم الوثنية السالبة وتمعن في إحلال أخرى هي من جوهر الحنيفية المستقيمة.

وعلى الرغم من كون هذه المرحلة محاطة بكثير من الغموض شأنها في ذلك شأن التراث الجاهلي شعرا ونثرا الذي يقع عند كثير من الباحثين موضع شك ومساءلة وتردد وطعن، فكذلك أدب الحنفاء لا يبارح هذا الجانب، لبعد فعل التدوين والاستناد إلى الذاكرة التي تتعرض للنسيان والتحريف بفعل طول الزمن وتلاعب المتداولين لها تغييرا وتعديلا ونحلا.

الصورة المرسومة عن الحنفاء إذن "صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية، فليس فيها شيء من عقيدتهم في الله، وكيفية تصورهم وعبادتهم له، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسرون عليها"⁹

والأحناف بدعوتهم إلى التوحيد ونبذ الأوثان، وإلى مجموعة من المثل الأخلاقية العليا كتحرير الخمر والوَاد وممارستهم لطقوس تعبدية كالحج والصوم والتحت والختان وغيرها، خرجوا عن

والخطابة وفق تيمات معينة يمكن محورتها على الشكل الآتي:

. التضرع إلى الله وتوحيده.

. الحساسية المفرطة تجاه الموت والإيمان

بالبعث ويوم الحساب.

. الحكمة والموقف الأخلاقي والمعرفي.

. محك النظر ونصوص الرؤيا.

. القصص الديني وقصص الأنبياء.

أ. الوعظ في الخطابة:

درج الباحثون على تقسيم أغراض الخطابة بحسب موضوعاتها، وكان من أغراض الخطبة الجاهلية بالإضافة إلى التحميس على القتال وإصلاح ذات البين والمنافرة والوفادة والتعزية وغيرها "التبشير بدين جديد ومحاربة الفوضى والردائل والوثنية التي سادت في العصر الجاهلي"¹⁰ وقد نهض بهذه الأدوار ثلة من أدباء الحنفية متوسلين بالخطبة لمواجهة التخبط الديني والنيه الوجودي مستعينين بما أدركوه من الحكمة بصفتها لغة العقل والتجربة في بناء الدلالة، وهي حكمة مطبوعة باليقين الذي لا يقبل الاحتمال، ويرفدها ثلاثة روافد: التأمل القصدي أو محك النظر، والتعقل المطلق، والخبرة التجريبية. وسنعرض لثلة من الخطباء الوعاظ في هذه المرحلة كما يأتي:

1- الموت والبعث والجزاء:

أ. قس بن ساعدة:

يعد قس بن ساعدة خطيباً من خطباء العرب حكيماً ومخترعاً، اختلف في مذهبه الديني، فهناك من عده نصرانياً وهناك من عده من حنفاء الجاهلية على دين إبراهيم، وهناك من عده في جملة فرقة هي بين النصرانية والصابئة تدعى الركوسية، أصحابها حيارى سواحة طالبون للعزلة.

المعتقد الاجتماعي والعرف الديني وغدوا غرباء في مجتمعاتهم.

وهناك من عدّهم "الطبقة المثقفة من الجاهليين" لسعة اطلاعهم وتأثرهم بمن جاورهم من أهل الكتاب واتصالهم بالرهبان والمبشرين، ووسمهم بصفة "مصلحين" لكونهم نادوا بتحرير العقل من الخرافة والأساطير (عبادة جماد لا يضر ولا ينفع) وانتقدوا أوضاعاً اجتماعية مقرفة في حاجة إلى إصلاح، فألقوا المواعظ والنصائح في أمور الدين وقيم الأخلاق وفي التفكير وقواعد السلوك.

ولم تستطع الحنفية أن تتغلغل في المجتمع الجاهلي لاعتبارات عدة منها صلابة وقوة نفوذ الوثنية في المجتمع العربي وتعالقها بمنظومة اجتماعية واقتصادية ضمنت لها الاستمرارية والهيمنة، خاصة وأن الحنفية أرجأت حل المشاكل العالقة في المجتمع إلى مرحلة لاحقة وهي مرحلة ما بعد الموت ولذلك لم تعتنقها الفئات المهمشة والمعدمة المتألمة من جراء الوضع الاقتصادي والاجتماعي القائم، لكنها في الوقت نفسه كانت توطئة وإرهاصاً أولياً لظهور الإسلام وتقبل تعاليمه لكونه سيسد ما قصرت عن تحقيقه الحنفية.

الحنفية إذن عبادة توحيدية فردية لم تخضع لمنهاج ولا لشريعة واضحة تحدد معالمها، اللهم النسبة إلى شريعة إبراهيم. هي بحث عن المقدس والمؤله، بحث عن إيجاد معنى للمقدس في الذات، واستجابة لحاجات روحية في مسيس إلى شحذ واستيحاء.

الوعظ شكلاً وموضوعاً:

يمكن أن نتلمس الوعظ في مرحلة ما قبل الإسلام في خطابين نوعيين هما خطاب الشعر

الكائن، وقابل التسليم بيقين الفناء ادعاء حقيقة البعث: النوم إلى حين.

وإذا كان في التقديم ينزع الخطيب إلى نقل المخاطب من حال اللامبالاة إلى التنبيه تهيئاً وتمهيداً له لمتابعة الخطبة، فإن تمهيد قس لم يخرج عن هذه الوظيفة، إذ دعا إلى الإنصات وإبقاء الوعي وتنشيط أجهزة تلقي المعلومة لتحقيق الاستفادة ولازمها، وهو في الوقت نفسه يعقد ميثاق تلقى متأسس على الفهم والاستيعاب، وبمراعاته ينفذ المخاطب إلى أغوار مقصدية الرسالة.

ومقصد خطبة قس أن تنقل السامع من عقيدة إلى أخرى، أن تحوله ذهنياً من الشك في كينونة الاعتقاد الأول إلى اليقين في المعتقد الثاني، متسلحة بإثارة الهلع الذي يصيبه من سؤال: أين الأولون؟ وعن حاله ومآله المقبلين.

وهذا ما جعل الخطبة، وهي تتناول الحياة والموت بصفتهما تيمة مركزية لها، تنماز بوجود وعي بالزمن الدال على نضج الفكر وحساسية مفرطة في التأمل، فقد حوت الخطبة في جنباتها الأزمنة الثلاث: الماضي المؤشر عليه بالموت والفوات وانصرام عهد الأولين كعاد وشمود والآباء والأجداد، والحاضر المشار إليه إخباراً بمجموع ظواهر الطبيعة المحدودة شواهد وآيات جليات، والتي أوردتها الخطيب في ثنائيات تقابلية في الغالب خالية من الوصف (ضوء/ظلام) (بر/أثام) وفي أخرى مرفقة بالوصف (نجوم/تمور/بحور لا تغور) (سقف مرفوع/مهاد موضوع).

وفي تعدادها استقصاء مستوفٍ لمجمل ظواهر الطبيعة المرئية التي يقرب المتلقي الجاهلي على إدراكها لاستئناسه بها، ولكونها من المستقر من الطبيعة المستغني عن التجريد وغلبة التأمل. وهي من جهة أخرى تستخدم شواهد ملموسة ناطقة

ذكر الجاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعجب بموعظته وهو على جمل أورد له في سوق عكاظ، قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم " رأيت بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: " أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت " وهو القائل في هذه: " آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وأمهات، وزاهب وآت، ضوء وظلام، وبر وأثام، ولباس ومركب، ومطعم ومشرب، ونجوم وتمور، وبحور لا تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، وليل داج، وسماء ذات أبراج، ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم حبسوا فناموا " وهو القائل: " يا معشر إباد، أين تمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، أين المعروف الذي لم يشكر، والظلم الذي لم ينكر، أقسم قسٌ قسماً بالله " إن الله لدينا هو أرضى له من دينكم هذا".

وأنشدوا له:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقيين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر¹¹

يُختزل موضوع هذه الخطبة في الإقرار بوحدانية الله وحتمية الموت والإيمان بالبعث، إذ استهل الخطيب خطابه بالدعوة إلى الانتباه والقول بحقيقة الموت الذي يوحد على مذابحه كل الناس.

وجاءت بنية الخطبة منصهرة في سؤال وجواب، السؤال عن مصير الأولين بعد الموت فرادى وجماعات، ومن أوساط مختلفة عمرياً واجتماعياً، والجواب مبشر بوجود دين أرضى وأفضل من

مشاع، وهذا ما يذهب بالوعظ إلى مراقي الدعوة والإبلاغ (الوعظ الدعوي).

والخطبة متماسكة الأوصال متحدة الأركان لانتظامها في غرض واحد، وهذا ما أصبغ عليها صفة التماسك والاتساق، ونفى عنها التشظي والتشتت وجعل حكم المتلقي عليها هو الانسجام، وهذا التماسك نادر الحدوث في باقي أصناف الخطب كخطب أكثم بن صيفي التي يغلب عليها اللاتساق، ولعل أن يكون غرض الموضوع من المحكمات في تحقق الوحدة العضوية للنص.

الخطبة في عمومها إذن تعالج جدلية الحياة والموت، جدلية البداية والنهاية ومحوها الإنسان، وترسيخ لفكرة المصير المشترك الجامع بين الأحياء، مبدؤه الموت وواسطته البعث ومنتهاه الجزاء.

ب. عامر بن الظرب العدواني:

من النماذج الإنسانية كذلك التي أرسلت الوعظ في التوحيد والمبعث، عامر بن الظرب العدواني في وصية طويلة يقول في آخرها:

"إني ما رأيت شيئا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا، ولا جائيا إلا ذاهبا، ولو كان يميم الناس الداء لأحياهم الدواء: ثم قال: "إني أرى أمورا شتى وحتى، قيل له: وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حيا ويعود لشيء شيئا، ولذلك خلقت السماوات والأرض، فتولوا عنه ذاهبين" وقال: "ويل إنها نصيحة، ولو كان من يقبلها"¹⁵

في هذه الوصايا جملة موضوعات تأملية ذات طبيعة توحيدية مُصدّرة بموقف حاسم ينبئ عن حقائق مشهودة بالبصر والبصيرة يمكن تحديد معالمها في:

● علة الوجود والموجود، واجدٌ واحد (خالق)

● حتمية الموت والفناء.

وآيات مقروءة، تقرر بصحة المعطى الذي تنشده الخاتمة.

وحديثه عن ظواهر الطبيعة حديث عن معمولات في حاجة إلى عامل مدني، والعمل لا يأتيه إلا مقتدر تجب له الطاعة والانقياد.

ولانعدام في الخطبة إرهاصا لزمن المستقبل، إذ ذكر الدين الأفضل استقبالا وبشارة بالبعثة المحمدية. وورد الاستقبال كذلك من جهة المصير الذي سيصير إليه الخطيب وسائر الناس.

الزمن إذن ذو بنية دائرية بالنسبة للفاعلين في الحياة، فالمستقبل الذي ينتظرهم هو الماضي الذي كان خلفهم. فجرى الزمان ودورانه قائم على اتصال مكوناته (الأزمنة الثلاث) وليس على انفصالها واستقلالها، ولذلك فالماضي كان حاضرا وكان مستقبلا أيضا، والحاضر كان مستقبلا وسيكون ماضيا، والمستقبل سيكون حاضرا ويكون ماضيا أيضا. أما الحاضر فهو مزيج من مستقبل آت وماض منصرم، والجدل والتماهي قائمان إلى يوم الدين ضمن (كان، كائن، يكون)¹². الزمن في الموعظة منصرم ومخيف يبعث على الأسى والتلاشي، ويغمر الذات بالشعور بالعدم ويزكي الإحساس بشقوة الحياة.

شهرة هذه الخطبة لا تكمن فحسب في مضمونها "لاحتجاجه (قس) للتوحيد ولإظهار معنى الاخلاص وإيمانه بالبعث"¹³ وصياغتها الفنية، ولكنها تتصل من جهة ثانية برفعة سندها فراوينا هو الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو "إسناد تعجز عنه الأمالي، وتنقطع دونه الأمال"¹⁴. والمعاني الواردة هنا كالتوحيد والبعث... مغايرة لما يقر في مرجعية الجمهور، فهي غير مشتركة ومتقاسمة تقاسم

● اليقين في البعث.

يستمد فعل الرؤية جاذبيته من كونه فعلا ذاتيا كسبته الذات لوحدها بفضل تأملها، وهو يختزل في ثناياه عمق الملاحظة والتجربة المسترسلة زمنيا فيجعلها موضع ثقة وقبول بصفتها استقراء لمعطيات معاينة. وفعل الرؤية يتوشح بالإيجاب تارة (أرى) وأخرى بالسلب (ما رأيت / ولا رأيت) ويقترن الإيجاب بالإثبات والإقرار: إقرار البعث وترسيخ حقيقته، ويرتبط السلب بالنفي: انتفاء الصدفية عن الخلق وإنكار العبت.

ينطلق النص من السرد والإخبار إلى الاحتجاج بمعطى واقعي تمحضه التجربة "ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء" ثم يتنامى حين يعمد إلى الإيهام والتغريب "أمورا شتى وحتى"، فيضطر المخاطب إلى المشاركة رفعا للاستغلاق وطلبا للاستبانة متسائلا عن معنى "حتى" لتوهمه أنها شيء إذ أرغم على الوقوف عليه فما درى خصيصتها والتبس عليه أمرها لانقطاع الكلام، وما "حتى" عند الخطيب إلا رابط حجاجي يربط بين قولين، "والدليل الذي يرد عادة بعد هذا الرابط يكون أقوى حجاجيا وأعلى سلميا من الأدلة التي ترد قبله"¹⁶

وهذه الأقوال تفيد نتيجة من نمط "صدقية البعث" "عودة الحياة ثم الحساب". وكان القول الأخير "حتى يرجع الميت حيا ويعود لا شيء شيئا" داخل السياق المؤطر فيه وتبعاً لمقصدية المتكلم (النصح والوعظ) هو الدليل الأقوى حجاجيا.

بيد أن تلقي هذا الخطاب المتصاعد لم يكن إلا تولية وصدودا. وانكفاً المخاطب عن المتابعة واستغنى عن التفاعل على الرغم من تصريح الخطيب من كون كلامه وعظا لو كان من يقبله.

(2). دعوة توحيد / شقوة السؤال:

زيد بن عمرو بن نفيل:

تجشم بعض الأحناف حرقه السؤال وتبعة الاختيار وعاقبة المجاهرة بالمخالفة، من هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، الذي أضناه الشك المضني المقرون بالتساؤل العليل. وهو كان يطلب الدين ويبحث عن الحق، فخرج يتقصد إجابة شافية لشغف وجودي يستشرف ما وراء الوجود لم تهدأ نوازعه الهائمة، إلا باتباع الحنيفية، فقرر الاعتزال والمنابذة.

يقول زيد بن عمرو بن نفيل معاتبا قومه على الذبح للنصب:

" يا معشر قريش، أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحوها لغيره! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحدا على دين ابراهيم غيري"¹⁷

ويذكر الإخباريون تعرضه للإذاية والإبعاد القسري نتيجة مجاهرته بدعوته والتشنيع على عقائد قريش الوثنية، يقول:

أربا واحدا أم ألف رب

أدين به إذا انقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا

كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتها

ولا صني بني عمرو أزور

ولا هبلا أدين وكان ربا

لنا في الدهر إذ حلني صغير

ولكن أعبد الرحمن ربا

ليغفر ذنبي الرب الغفور¹⁸

وفي كلا النصين يطرح السؤال ويعقبه حسم في الإجابة، بالسؤال تفتتح الإشكالات ومن خلاله تتسع دائرة الرؤية، وبه تقرع الأذنه المتلبدة

كانت النفس الإنسانية نزاعة إلى البحث عن التوازن النفسي، والروح من أشطاره، يكون اختيار الاغتراب الوجودي موقفا فلسفيا في نسق وجودي يجعل الاغتراب "معادلا موضوعيا للعقم والجذب والعدم".¹⁹

3. الوعظ والاعتبار:

الممامون الحارثي:

قعد الممامون الحارثي في نادي قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم فكر طويلا ثم قال: أرعوني أسماعكم، وأصغوا إلى قلوبكم، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد، طمح بالأهواء الأشر، وran على قلوب الكدر، وطخطخ الجهل النظر، إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر، أرض موضوعة، وسماء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري فتعزب، وقمر تطلعه النحور، وتمحقه أديار الشهور، وعاجز مثير، وحولل مكيد، وشاب مختصر، ويفن قد غبر، وراحلون لا يؤوبون، وموقون لا يفرطون، ومطر يرسل بقدر، فيحيى البشر، ويورق الشجر، ويطلع التمر، وينبت الزهر، وماء يتفجر من الصخر الأير، فيصدع المدر عن أفنان الخضر، فيحيى الأنعام ويشبع السوام، وينبي الأنعام، إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر البارئ المصور.

يا أيها العقول النافرة والقلوب النائرة، أنى تؤفكون وعن أي سبيل تعمهون، وفي أي حيرة تهيمون، وإلى أي غاية توفضون، لو كشفت الأغطية عن القلوب، وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين وأفاق عن نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة".²⁰

تؤثت هذه الخطبة لفعل الوعظ بسياق خارجي يربط بين الجلوس في فضاء النادي وبين عملي النظر والتفكير العميقين، يجعل الخطبة من ثمرتهما. وتتوافر في هذه الخطبة مقومات البناء

بالتقليد لتخترقها كوة من شك يستتبعه نفي فإثبات ويقين. وسؤاله في النص الأول سؤال إنكار وملامة، أنكر فيه السلوك الشائن (الذبح لغير الله) ولام مخالفة نهج ابراهيم النبي، وفي النص الثاني يخبر عن نفسه النابذة للتعددية الوثنية والمنحازة إلى اختيار التوحيد معتقدا وإن جهلت الشرعة، ويترك للمتلقى إمكانية الاتعاظ والاتباع سالكا اللامباشرة في التوجيه، إذ المفترض أن من يقتفي مسلك زيد في المسألة سينتهي إلى منتهاه في الحكم. وبذلك تخرج الذات السائلة وهي في رحلة قلق وجودي قائم حول سؤال المعبود وعلاقة العابد به من مرحلة التشكك وحالة الالتباس إلى حال التيقن والثبات والتسليم.

وهو إثبات ينسجم ومبدأ الفطرة التي جبل عليها الإنسان، إذ تعف عن المعتقد الشري وتغمس في مشروع ذاتي يبتغي الإفلات من التيه العقيدي، تأثيلا لقيمة التوحيد والعمل على ترسيخها في النسق الديني المشترك.

وفي كلا النصين إقرار بالغرابة الدينية وإحساس بالفردة والتمايز عن العرف الاجتماعي والمعتقد الديني والقيم المستولية. والاعتزال الإرادي الصادر عن طوعية اختيار له تبعات سيكولوجية واجتماعية مسلطة من قبل الجماعة على منتهكي القواعد النازمة لعلاقة الإنسان بمحيطه على المستوى الميتولوجي. فيغدو الاعتزال انعزالا فرديا وعزلة جماعية قاهرة في الوقت نفسه على المنعزل.

وبمقدار انفصال الذات عن القيم والآراء والمفاهيم التي تعترض عليها، بمقدار ما يزداد ارتباطها بالبديل المقترح وتنشد إليه وتمسك بمكوناته لتنفلت من رقبة غربة دينية سافرة. وما الاغتراب الديني الذي تعبر عنه تجربة الواعظ إلا وجه من وجوه الاغتراب عن الواقع الحضاري المعيش. ولما

الاعتبار بمظاهر الطبيعة: وأحقها بالاعتبار الماء وهو يحيي الأرض والموت، فتثمر بأنواع من الخضر، عليها يحيا الإنسان والحيوان.

والتدبر في كل هذه المظاهر والتمعن في خلق الله وتصاريفه، من الدلائل الواضحة والشاهدة على قدرته.

واتخذت الخاتمة شكل مناداة للمخاطب العصي، وجاءت بأوصاف له هي عينها الأسباب الحاجزة والمانعة من إدراك حقيقة الخلق، فكانت أوصاف هذا المخاطب الجمعي متعددة بتعدد هم وشملت نفرة العقل ونارة القلب، والعمة عن السبيل والهيام في الحيرة والتردد، والجهل بالغاية والمصير.

والنعم بالخاتمة إحساس بالاعتراض والتمنع عن الازدعان، فيكلم الخطيب ويتأذى ويعجز عن جعلهم يتبعونه، وكأنه يضمّر في ثنايا هذه الموعظة، امتعاضاً عن عدم الاتعاض يشعره بكونه منحشراً في زاوية التكذيب. وحينما تعجز النفس عن أن تكون مُتَبَعَةً وتُكَبَّح مقاصدها وما لأجله خاطبت، لا تجد من ترويح لها إلا بالتمني، فتمنى الخطيب والحال هذه أن تُكشَف الغشاوة عن القلوب وعن العيوب ليبرز الحق، فيستفيق الحائرون ويتحقق الاهتداء.

الخطبة في بنيتها محكمة الأجزاء متصلة البناء متدرجة الأقسام، ذات بنية حجاجية قائمة على التشخيص والرصد، تشخيص حال المجتمع والموانع الصادرة عن الاستفادة من الوعظ. وقد كان ذاك في المبدأ والمختتم، وبينهما كان رصد ظواهر الكون والإنسان والطبيعة لغاية التدبر والاعتبار.

وقد أغنت النعوت هذه البنية الحجاجية في بعدين متعارضين، بعد إثباتي حمل النعوت الإيجابية الداعية إلى إجلاء النظر وإعمال الفكر، وبعد سالب تعلق بالنعوت القدحية المقترنة بحال المخاطب، إما إقراراً لحال مخاطب كائنة عجزت

الثلاثة في عملية ترتيب القول وهي التقديم والعرض والخاتمة.

في التقديم يصادفنا مصدر وعَظ، ليكشف عن مقصدية الخطيب ووجهته الحجاجية، إذ حدد مقتضيات الوعظ ولوازمه في جارحتين: الاستماع بالأذن والإصغاء بالقلب، وبين نفاذ الكلمات ونفوذها من الأذن إلى القلب، استدعاءً لقدرات تأويلية وعمليات استدلالية مَمكنة من تحقيق الإفادة. وقبل أن يجنح الخطيب إلى إجلاء غرضه من الخطبة، يأخذ في عرض استقصائي واصف لحال المجتمع، يجعل جموح الشهوات وطغيان الشر والكدر والجهل معوقات راصدة ومشخصة لأعطاب المجتمع، وصادفة في الوقت نفسه عن بلوغه كمائن الحقيقة المجلاة.

ولن يكون الغرض الذي تؤمه الخطبة غير الاعتبار من مظاهر الكون والطبيعة والإنسان، الاعتبار بالكون بسمائه وأرضه وشمسه ونجمه وقمره: النجم يهدي بنوره المسافرين ليلاً، والقمر يتنامى من حال الأهلة إلى أن يصير بديراً إلى أن يمحي بفعل التناقص، وكلاهما موضوعان للهداية والاهتداء، يهديان بنورهما ويهتدى بهما ويهتديهما.

الاعتبار بأحوال الإنسان: من خلال معطين لصيقيين بمحياء ومماته، وهما الرزق والأجل، أولهما يجري الإنسان له وثانیهما يجري وراء الإنسان إنهاكاً له. الرزق عند الخطيب لا يحتال له، لتباين المعاش رغم الاحتيال، فكم من قليل حيلة استغنى وكم افتقر واسعها.

وكذلك الأجل لا يمايز في قبض الأرواح بالنظر إلى زمن عمارة الأرض، إذ مُضِي الأجل تحصيل زمن وسقوط ورقة العمر.

توقعات تأملية وإبصارات للكون والإنسان على السواء في هذا الوجود المطلق.

- بؤرة خطابة الوعظ في العصر ما قبل الإسلام التدبر في الكون وصولاً إلى حقيقة التوحيد، والاعتبار بالموت ومصير الأولين لبلوغ بدهية البعث والتبشير بالدين الأقوم والأرضى، ووحدة الموضوع هذه أكسبتها التحاماً واتساقاً عصمها من التشظي والتفتت.

- وهي في مجملها خطب قصيرة على العموم، وتقتصر فيها جملها، فتأتي بصناعة صوتية قوامها السجع والتوازن.

- تطرّيز الخطبة بالشعر، لوقعه في النفوس ولما يحمله من صور فنية، وإن كانت في أغلبها تقريرية الطابع، باعثة على المتابعة، وكأن الشعر يطلّع بدور اختزال المضمون النثري فيضمن له الحفظ.

- عموماً "غلبت في خطب هذا الفريق من الخطباء الحنفاء العبارات القصار ذات الوقع سريع الإثارة بنبرتها البلاغية المشدودة إلى نهايات مسجعة ومتوازنة وبكثافتها التعبيرية ذات القدرة على التأثير في نفوس السامعين.²¹

ب. الوعظ في شعر الحنفاء:

من الباحثين من ميز في الشعر الديني قبل الإسلام بين الشعر التوحيدي وشعر الأحناف، الأول يدخل في الروايات الدينية التاريخية، وهو مغرق في القدم يرتد إلى ما نسب لأدم وحواء عليهما السلام في رثاء ابنهما القاتل والمقتول، وإلى باقي الأنبياء. وما نسب لأدم وحواء: "أقدم أشعار التوحديين بل هو مقدمات غامضة ومشوشة، إن لم تكن محاولات عقيمة للتغيش بأولية الشعر التوحيدي ضمن سياق غير مجد مع الشعر الوثني"²².

أمامها الذات الواعظة وهي تسعى لتغييرها وحملها على مجاراتها في محاجتها، وإما استفزازاً لها أمام هذا التقريع الوصفي يستحثها الواعظ من خلاله على خلع هذه الموصفات وطرحها جانبا حتى تتقبل الوعظ وتتأثر به.

وبهذه النعوت مَوْضع الخطيب المخاطب في مقام الضال المرجو اهتداؤه، والجاهل المنتشي المطلوب تعليمه، والشاك المستفيق باليقين عن تردده. وأهمية المقام تؤسس لطبيعة الرؤيا الصادر عنها الخطيب، مما يجعلها وعظاً ينشد رفع الغشاوة ويفارقها عن نهج الدعوة التي يكون منطلقها واعظ عارف عالم وموعوظ جاهل يتعلم، وإن كان بين المقامين تماس وتداخل.

تتفق هذه الخطبة وخطبة قس بن ساعدة في المضمون الدعوي، إذ تدبر الكون قاسم مشترك بينهما ونمت الثانية بإقرار الوجدانية والموت والبعث. وتفترقان في تطرّيز الخطبة بالشعر، إذ غاب عن الأولى وحضر في خطبة قس، كما أن في الأولى تصريحاً بالقصد الوعظي وفيها تحديداً لحال المخاطب الغافل. بيد أن انتظامها بهذه الطريقة المنطقية يبعث أكثر من سؤال ليس حول صدقية الخبر، ولكن حول تناول الأيدي في التصرف فيها.

خصائص خطابة الحنفاء:

على الرغم من أن خصائص هذه الخطب هي من جملة خصائص النثر الفني الجاهلي التي استعرضها الدارسون له، إلا أنه يمكن أن نرصد بعض ملامح ما أتينا على دراسته في جملة من المعطيات يمكن اختزالها في:

- عكست خطب الحنفاء هذا الجانب الوضاء من مرحلة قاتمة في تاريخ الفكر الديني العربي، إذ استأهلت أن تكون صوى دالة ومفارقة تكشف عن

الصلت، وهما من رواد الشعر الديني وكانا يقصان القصص الديني الماتح من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حول أحوال الأمم السابقة ومصائرهم ويذكران الثواب والعقاب.

ومن الثبات الذي لا يدفع كون "الحكمة قريب الأرومة من الشعر الديني وإن تباينت الأساليب والأهداف"²⁸، وقد أدرج الباحث في هذا المذهب، وإن لم يتوصل بالشعر ورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الأيادي.

وأما الثاني فهو ديوان التجارب، يورد فيها الشاعر جملة من القواعد الأخلاقية في شكل خواطر سائحة، وكأنما ينظم "قضايا الفلسفة التي ذهب في تحقيقها شطر كبير من عمر الاجتماع الإنساني"²⁹ ويترك للناس حرية الاختيار من غير أن يحملهم على ذلك. "وإطلاق الاختيار وحده كاف في إضعاف كل مذهب، لأن من توخى الإقناع توخى به الحمل عليه"³⁰. وعدَّ هذا الشعر هو شعر المواعظ والنصائح.

سيشكل هذا التمييز منطلقاً للنظر في شعر الحنفاء من جهة توليفية بين المنحيين فالحكمة والأخلاق وجهان متلازمان لافكاك بينهما، وإن كنا سنصدف عمَّن مثَّل لهم الرافعي من الشعراء وسنقصر جهدنا على دراسة نماذج معينة

(1). الموت واعظا:

أ. لبيد بن ربيعة العامري:

الناظر المتأمل في شعر لبيد الديني يجد أنه انصب على الحنيفية، حيث أفلح في خلق كونية ذات سماء عقيدية سامقة، تلك التي ترجمت أفكاره وآراءه التي آمن بها، وقد عاش من أجل ترسيخها وتدعيمها، ثم نشرها في مجتمعه بشكل توجهي قادر على الإيصال والإيغال³¹.

ونسبة صحة هذه النصوص محل طعن وشك، والقبول بها متعلق في نظر الباحث عادل جاسم البياتي بمعانيها فقط وليس بألفاظها مطلقاً. وأما شعر الأحناف فما عاصر البعثة النبوية أو سبقها قليلاً مثل "شعر لبيد بن ربيعة وعدي بن زبير وأوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى، وعبيد بن الأبرص، وأميرة بن أبي الصلت"²³.

وقد حدد الباحث الاتجاهات العقيدية لشعر التوحيد في مجموعة من الأبعاد منها الاتجاه النسكي "الغارق في نمط من عبادة مجهولة الأسس، غامضة المقاصد وإن كانت تؤكد وحدانية الخالق، إلا أن معالمها وفق المنظور العقلي للإسلاميين لم تحدد لدى الأحناف"²⁴. وأبرز ظواهر هذا المنحى التضرع إلى الله والانقياد والاستسلام له.

"ثم الاتجاه الذي تعكسه مبادئ الثقافة الدينية الموروثة والمنقولة والمتأملة، وقد تتخللها مقاطع أسطورية"²⁵، واقترن به التوجه نحو التأمل الفلسفي لشعراء متألهين "ينطلق بعضه من قاعدة التجارب الفطرية والشخصية في الحياة، وبعضه الآخر من تجربة الناس في بلاد العرب، حيث تتجمع لديهم طائفة من الرواسم (العبارات). والصيغ الجاهزة) والأمثال في شكل حكمة أو موعظة"²⁶.

بالإضافة إلى ما ذكر، أخذ موضوع تقديس البيت المحرم وتقديس مكة حيزاً مهماً من شعر الأحناف، وارتبط به ذكر المناسك والشعائر ومواسم الحج المختلفة في العصر الجاهلي. منضافاً إليها شعر التلبية قبل أن يأخذ منه التحريف مبلغه.

كما ميز الرافعي في مقارنته لأنواع الشعر بين الشعر الحكيم والشعر الأخلاقي، فالأول عنده هو "المقصود على الدين والفلسفة وما يرمي إلى هذه الناحية"²⁷. وجعل مذهباً من مذاهب الشعر ومثلاً له بأنموذجين هما عدي بن زيد العبادي وأميرة بن أبي

وتبقى الجبال بعدنا والصوامعُ
وقد كنت في أكناف جارٍ مَضْنَةٍ
ففارقني جارٌ بأزْدٍ نافع
فلا جزعُ إن فرّق الدهر بيننا
وكلُّ فتى يوما به الدهر فاجع
فلا أنا يأتيني طريفٌ بفرحةٍ
ولا أنا مما أحدث الدهر جازع
وما الناس إلا كالديار وأهلها
بها يوم حلُّوها وغدواً بلاقع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه
يحول رمادا بعد إذ هو ساطع
وما البر إلا مُضْمَرَات من التقى
وما المال إلا مُعْمَرَات ودائع
وما المال والأهلون إلا وديعةٌ
ولابد يوما أن تُرد الودائع
ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم
كما ضمَّ أخرى التاليات المشايعُ
وما الناس إلا عاملان فعاملٌ
يُتَبَرَّ ما يبني وآخر رافع
فمنهم سعيد أخذ لنصيبه
ومنهم شقي بالمعيشة قانع
أليس ورائي إن تراخت منيتي
لزوم العصا تُحنى عليها الأصابع
وقد جعل إحسان عباس هذه القصيدة في
القسم الخاص برثاء أخيه أريد، وهي كاشفة عن
الإحساس بفاجعة وحتمية الموت وألم الفقد، وقد
جاءت تقريراً لما هو متداول ومعروف: الموت حقيقة
لا تدفع، والعمر ضوئ يتخافت حتى ينقطع، والألم
فعل طبيعي مفارق، والمال والأنفس ودائع مستردة،

وقد حدد الباحث محمد حسام علم ثلاثة
اتجاهات متكاملة لمظاهر الحكمة في شعر لبيد وهي:
■ "الأول": فجيعه الدهر وتلاعب الأقدار بالناس.
■ "الثاني": دناءة الدنيا والرغبة في الحصول على
الشرف المعنوي.
■ "الثالثة": الغوص في أعماق النفس البشرية
لاستخراج خبائرها³².
وقد أسهمت عوامل متعددة في هذا النزوع
النفسي عند لبيد المتأله، فبالإضافة إلى التأثير البيئات
دينية متاخمة كالحيرة واليمن، فهناك طول العمر
والإحساس بمعاني الموت والزوال، وهذان العنصران
في نظر إحسان عباس "قد أضافا إلى شيء نظريته
الدينية القائمة في حقيقتها على الأسى لمصارع
البطولة والعظمة"³³
وعند لبيد استعلت الكلمة الدينية، وهوّل
الموت واستفخم، ونضحت القصائد بالمعاني الدينية.
والوعظ عند لبيد يجري في مجريين،
مجرى مطلب عرضي يرد في ثنايا غرض القصيدة
الذي يؤمه الشاعر كما في القصيدة 14. البيت 5 ص
108 وبعدها:
أولم تري أن الحوادث أهلكت
إرماً ورامت حُميراً بعظيم
لو كان حيّ في الحياة مغلداً
في الدهر أُلْفاه أبو يَكْسوم
والحارثان كلاهما ومحرق
والتَّبَعان وفارسُ اليعموم
والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً
بالجنو في جدثٍ، أُمِيمٌ، مُقيم
. وإما أن يكون له قصيدة، كما في القصيدة
24 ص 168 وبعدها، يقول فيها:
لينا وما تبلى النجوم الطوالع

ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب
لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا
ودون مَعَدٍ فلتزغك العواذل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
بلى كل ذي لب إلى الله واسل
ألا كل ما خلا الله باطل
وكل نعيم لامحالة زائل
وكل أناسٍ سوف تدخل بينهم
دُويهيّة تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوما سيعلم سعيه
إذا كشفت عند الإله المحاصل

وهذه مقدمة وعظية في الرثاء عن انقضاء
الآجال واختتام الأعمار، ناسبت الغرض لاقتراحه
بالموت، والموت مدخل للوعظ ومناسبة للتذكير.
وتكشف هذه المقدمة عن عمق الإحساس بالإفناء،
فالذهاب مصير قسري نسير إليه طبيعيا، سبق
الأولون ويتلوهم الباقون.
تتلاشى العظمة الإنسانية أمام قهر الموت، و
يندرس المجد الدنيوي ويعفو عليه الزمن، ويقسو
الموت بسطوته وعجز الإنسان عن دفعه، فيكون
الخضوع والاستسلام. وهو معنى يلتصق بالجبرية
ومن ثم كان الاعتبار بالأمم الغابرة، فكلها هلك
بمحض إرادة الله، ومنهم النعمان بن المنذر كان
يرفل في النعيم فأتاه أجله فأرداه في التراب.
الوعظ هنا شديد الصلة بالرثاء متداخل
الجوار بخطبة العزاء، فتزد العظات نُتقا سلوى
للنفس وترويحاً للخواطر العاجزة، واقتضاؤها مطلب
قضى به الموضوع نفسه، إذ تجد الذات عزاءها في
مواعظ تبتغي التذكير والاعتبار.

واستخلاف السلف يرافقه تشجيع الخلف، والناس
سعيد يبني وشقي يهدم.
وهي في تعابيرها الدلالية إطلاق، وهي غير
مخصوصة باسم، كما أنها تبعد عن الرثاء
بمستوياته المحوريين: تعداد مناقب الفقيد
وتبيان أثر الفاجعة، واكتفت بالشق التألمي من
الحياة والموت ومصائر الإنسان في الكون، تبدو فيها
الذات مطاوعة للقدر وغير رافضة لتصاريفه فهيأتها
إلى أن تصطبغ بصبغة التعالي عن التاريخ لأن
الواقعة تغيب عنها معالمها وإحداثياتها المكانية
والزمانية فتأخذ صبغة شيء رمزي لا يعلى عليه،
وتلتحم بمخاطب كوني يحزن لشقوة الحياة، إذ تصير
الحياة مفاجئة لسيطرة القدر عليها ولمطاوعتها
لصولاته وتحركاته.

وليس خفيا، كما ذكر إحسان عباس ذلك،
احتمال تصرف لبيد في شعره من خلال إضفاء
لمسات دينية على قصائده الجاهلية.
ولعل أعلق الأغراض الشعرية بالوعظ هو
غرض الرثاء، ذلك أن "الرثاء فضلا عن أنه بكاء و
تفجيع وذكر لمزايا المرنى، فهو سائحة للتأمل في
الحياة والموت والاستيعاب"³⁴.

قال لبيد يرثي النعمان بن المنذر، قصيدة
36 ص 254 وبعدها.

ألا تسألن المرء ماذا يحاول
أنحُب فيقضى أم ضلال وباطل
حبائله ميثوتة بسبيله
ويبنى إذا ما أخطأته الحبال
إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه
قضى عملا والمرء ما عاش عامل
فقولا له إن كان يقسم أمره
ألم يعظك الدهر، أمك هابل
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى

في (الطاعة) و(العصيان) التي استخدمت في الإسلام فيما بعد"³⁷

سيمارس زهير بن أبي سلى في معلقته (أمين أم أوفى) الوعظ الخلقي موجها رسالته إلى ذبيان والأحلاف، تجنب بهم إلى السلم وترهب من الحرب، فبعد أن نهى عن كتمان ما يخالف الظاهر لاطلاع الله على ذلك ومحاسبته للمخالفين، أخذ يفصل في نتائج الحرب الميرة ويذكر عواقبها الأليمة في أسلوب تصويري ينقّر من تعاطيها ويحفّز على تحاشيها، ثم خرج انطلاقاً من البيت الأربعين إلى نهاية القصيدة " إلى ما يشبه كلام الأنبياء، فاستخلص مما قصه حكماً يصف بها الحياة السياسية والاجتماعية، ولقد أبرزها في موضعها سياسةً في الشعر وفلسفةً في السياسة"³⁸

وهذه الحكم الوعظية تجليات معرفية وليدة خبرة وتجريب في الحياة وقراءة التاريخ والاعتبار بسننه، وهي في مجملها دعوات إلى أخلاق خاصة بالاجتماع صاغها في الغالب في قوالب شرطية ترصد نتائج الشرط بصورة إلزامية تفيد منطق الوجوب سواء أكانت مُرضية أم غير ذلك، من ذلك قوله: ومن لا يصانع . في أمور كثيرة

يُضرس بأنياب ويوطأ بمنسم .

وقوله:

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه

ولم يغنها يوما من الناس يُسأم

"وقد شكل الموت للإنسان غيباً لا يدره ومبعثاً للتساؤل حول قيمة الحياة، ولحظة فارقة في الوجود، يقول زهير راثياً:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى

من الأمر أو يبدولهم ما بدا ليا

بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم

مأساة الزوال عامة في الأشياء والأنفس، ومحرك إلى إنجاز مشروع مصالحة مع الزمن ومع الموت، الزمن بعمله الدؤوب في الذوات والمقرون بالتغيير، فيستحيل السواد بياضاً ويقصر العمر ويقارب النهاية ويفنى كل شيء.

والمصالحة مع الموت تكمن في الإقرار بغلبته والإشهاد على انهزام الذات الكسيرة أمامه والقبول طواعية بإرادته، وأما المصالحة مع الزمن فتعني نحو السعي إلى تملكه واستجلاء الذات فيه، والعمل المتواصل في دائرته لتستطيل سعته ومُدته ودلالته عند الإنسان. مشروع المصالحة مشروع إنابة واستفاقة من غثاء دهرية نهمة، تدفع الإنسان للدنو إلى رحم مهادنة الوجود (أرضاً وزمناً) واستصلاح ما انبت في الزمن الماضي من منغصات وملاه، وانشداد إلى الآتي برحبه وعفوه، زمن يخترقه الاستشراف يحلّ الطيب محل ماضٍ راكِم السيء.

ب. زهير بن أبي سلمى:

قال ابن قتيبة: "وكان زهير بن أبي سلمى يتأله ويتعفف في شعره، ويدل شعره على إيمانه بالبعث، وذلك قوله:

يؤخر فيؤدع في كتاب فيؤدخر

ليوم الحساب أو يُعجل فيُنقم"³⁵

أراد لا تكتنموا الله ما في صدوركم فيؤخذ ذلك ليوم الحساب، فتحاسبوا عليه، أو يعجل لكم في الدنيا النعمة"³⁶ وما ذلك إلا لعلم الله الغيب مهما يجهد المرء في الكتمان، يقول زهير مخوفاً:

فلا تكتنم الله ما في نفوسكم

ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم

وعلى الرغم من تأله زهير إلا أننا "لا نعلم ما

طبيعة العبادة التي ورثها زهير عن أوس، ولا الرب الذي كان يتحنف له، ولا معاني الصيغ المستخدمة

هو، فليس القول أن يبدي الشاعر ما رأى، ولكن أن يراه الغير كما هو في عينه.

وبؤرة التحليل الدلالية في القصيدة، تكمن في لفظتي "أرى" و "بدا لي". إن التبدي هنا استجلاء للغامض وللغفل، والرؤية استبصار في زحمة العتمة، وحس في غبش الجهل والشك نحو وجهة اليقين إلى أن يصيرا (الرؤية والتبدي) إحساسا بالخوالج، استزادة في تمكّن اليقين، يجمع بين الدلالة الحسية والمجردة لهما.

وما يجلوه الشاعر من حقائق ليست مستورة، وإنما أريد التغافل عنها، وهي حقائق تشهد على الفناء والإهلاك وعلى بقاء وخلود الذات الإلهية، فالكل يفنى، كل الموجودات تبلى، وكان حقا الثواء الأخير وإن استطال الزمن وامتد العمر.

فكان الموت واعظا صامتا تهيب منه النفوس، وترهبها الوحدة في الحفر التي نطمر فيها، ويجزعها المصير المجهول المنتظر، فتغدو مزاين الحياة زائلة، وزوالها مصدر حقاها.

لكل جنب (أجنبي) مضجع

والموت لا ينفع منه الجزع

طاروا إلى الله بأعمالهم

يجزئ من خان ومن ارتدع

والموت لحظة فراق أبدي لا لقاء بعده، فهو غربة أبدية. بيد أن هذا التصور الدهري يصطدم بتصوير آخر يجعل من الموت لحظة ولادة أو إجهاض، ذاك الذي يربط الميتوتة الأولى (الموت في الأرض) بإحياء أبدي لا موت له ولا بعده.

الرغبة تمتد من الموت إلى ما بعده، ومعرفته ليست موضع اختلاف ولكن الاعتراف بأحقيته، وبضرورة الاستعداد له عبر الاستزادة من الزاد.

والعظات الميثوتة في ثنايا هذه القصيدة تكشف عن رؤية عقيدية للوجود والكون والمآل، فهي

وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

وأنى أهبط من الأرض تلعة

أجد أثرا قبلي جديدا وعافيا

أراني إذا ما بتُّ على هوى

فثم إذا أصبحت أصبحت غاديا

إلى حفرة أهوي إليها مقيمة

يحثُّ إليها سائق من ورائيا

بدا لي أني عشت تسعين حجة

تباعا وعشرا عشتها وثمانيا

بدا لي أن الله حقُّ فزادني

إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا

بدا لي أني لست مُدرك ما مضى

ولا سابق بشيء إذا كان بائيا

ألا لا أرى على الحوادث باقيا

ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

وإلا السماء والبلاد وربنا

وأيامنا معدودة واللياليا

أراني إذا شئت لاقيت آية

تذكرني بعض الذي كنت ناسيا

ألم تر أن الله أهلك تَبَعًا

وأهلك لقمان بن عادٍ وعاديا

وأهلك القرنين من قبل ما ترى

وفرعون أَرْدَى وجُنْدُه والنجاشيا

xxxx

ألم تر للنعمان كان بنجوة

من العيش لو أن امرأ كان ناجيا

فغير عنه رُشْدُ عشرين حجة

من الدهريومٌ واحد كان غاويا

إن رؤية الشاعر لآيات الله في النفس وفي

الآفاق تقترن بتمنيه أن يراها الناس كما بدت له

تاريخية وواقعية محسوسة، من غير نزوع قوي إلى تليين القلوب وإدنائها لأن الدعوة تالية لفعل الإخبار. وما لم يتحصل في النفوس الإقرار بحقيقة الدعوى التي ينهض الداعي الحنيفي إلى إجلائها، فإن ذلك لا يخول لصاحبها أن يمارس فعلا وعظيا فاعلا، لأن الموجه له الخطاب الدعوي لم ينتقل بعد من مقام الإنكار إلى مرحلة اللهو والتناسي، فيحتاج إلى موعظة فاتعاض.

ما مارسه الحنفاء هو دعوة إلى عقيدة ترفض التعدد وتنهض على التوحد، إلى جانب التنادي بمكارم الفضائل، أي الحكمة والأخلاق والمعرفة، مغايرةً للسائد في بعض المناحي ومساوقة للأصل التوحيدي ومكرسةً لاستيلائه وأوليته.

وإذا كانت مادة الوعظ توحيدا وأخلاقا، فإن انخراط الأحناف الصريح في ترسيم هذه الدعوة لم يكن انخراطا كلياً، يجعل من هذه المعالم موضوعاً مستقلاً وقائماً الذات.

لقد تفاوت انغماس الحنيفي في حمأة الدعوة بحسب الأداة التعبيرية التي يعتمد عليها، فكان للخطابة تفردا التام في تناول الوعظ وحده دون إقحام غيره من الموضوعات، وكان في الشعر حضور نتف وعظمية و مجتزأة وردت في مقامات سياقية متنوعة، سمح بإمكان تحقيقها الموت والتعزية والرؤية الكاشفة للوجود.

خاتمة:

لقد كانت غايتنا أن نرصد الوعظ في أدب ما قبل الإسلام، أدب الأحناف، وأن نقف عند بعض النماذج الدالة التي اتخذت الوعظ أداة ناجعة لإصلاح ذات البين، أو فلسفة تأملية في الكيان الإنساني وفي الوجود، لتبلغ مقاما روحيا يؤمن بوجود الإله وبوحدانيته، أو منزلة الفضيلة التي يعم

نابعة من صميم ذات متألهة أشقاها السؤال الوجودي وحقيقة الدين، وأقرت في النهاية بحقيقة وحتمية البعث.

وهذا ما يجعل هذه النصوص نصوص رؤيا واستبصار، إذ تكشف الأسرار وترفع الحجب، فتُعَلِّم وتُعْظ. تنبثق عن حدس صاف وتوسُّم، تستعبر بالأولين وتذم التهالك على دنيا، تعلم بالمجهول وتدرك ما لا يدرك وترسل الحكم.

والوعظ والحكمة يعكسان وعيا بدائيا وأوليا بالوجود وكشفا لموجوداته، منطلقه ذات مندفعة متألمة، تعوض الإنسان من مأساة التلاشي والذبول الوجودي، وتأخذ في تقوية الوازع الخلقي والتمكين لمأسسة الأخلاق وتأطيرها ضمن دائرة الدين وذلك بقرنها بسؤال الغاية من الوجود ومنتظرات ما بعد الموت من جزاء وحساب.

● خاتمة أدب الأحناف:

نلمس في أدب الأحناف من خلال النماذج المدروسة، أن الواعظ مفرط الحساسية بالزمان والمكان، وأنه صادر في تأمله عن يقين اعتقادي رسخه فعل الرؤية والاستبصار، فجمع بين عقلٍ متأله ووجدانٍ فياض، وأن حكمته تتلخص في فلسفته الأخلاقية الناشئة عن تجربته مع الناس والزمن، وعن الاعتبار بالأولين.

فكانت المعاني التي يتقصدها مشتركة بينه وبين المستمع في شكل مقولات دينية متداولة وشائعة، ومعارف مشاع حول الحياة والموت حيث تنكسر الذات أمام الوجود المر وتستسلم لعجزها المتصاعد.

تشبه وظيفة الوعظ عند الأحناف الإبلاغ والتبيين، إبلاغ مواقف ومعتقدات دينية (بشارة) وتبيين علة حكمها ومناط تأصيلها باعتماد معطيات

خيرها إن انتشرت في أوساط المجتمع. وقد اتخذ الوعظ من الخطابة والشعر شكلين أدبيين متميزين، لكل منهما خصائصه الفنية وإن وُحِدَ بينهما الموضوع المطروق أو التيمات سواء أكانت مكتفية بنفسها أو جاءت مضمنة في غرض أكبر. والتأشير على وجود الوعظ في هذه المرحلة من التاريخ تأكيد على دور الواعظ التوجيهي في إسعاف المجتمع بما يمكن أن يؤسس لعملية الإصلاح، على الرغم من أننا قد قايضنا الوعظ في أدب ما قبل الإسلام بأدب الحنفاء. وكان هذا الإجراء هو الأداة التي ناسبت عملية الربط بين الوعظ والدين، الدين بمفهومه العام والذي قد يتسع ليشمل الإيمان بشرائع أنبياء ما قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، سواء كانت نصرانية أو ما تبقى من بقايا شريعة إبراهيم، أو بمفهومه الضيق الذي يجعل عملية عدم الانخراط في المعتقد والطقس الديني في تلك المرحلة عملية تمرّد وانحراف عما تسلكه عامة المجتمع، وإن كان عدم الانخراط اختياراً غير متصل باتباع الشرائع الدينية السابقة. وقد ثبت لدينا بالنظر إلى ما أوردناه من معطيات أن هذه الشذرات الوعظية تحمل دلالة وجود فعل الوعظ وتشهد على شرارة انبثاقه الوهاج وميلاده في كنف الدين المهيمن مع نزول الرسالة المحمدية.

- 1 ستميل إلى اختيار عهد ما قبل الإسلام لنصرف عن ذهن الحملات المتعسفة اللاصقة بتسمية العصر الجاهلي.
- 2 عبد الإله . الصائغ (1994): الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب (الأدبية وتحليل النص) دار الفكر المعاصر ، ط1، صنعاء ، ص 43.
- 3 . حسام محمد علم (2006): الحنيفية في شعر لبيد العامري وأبعادها التعبيرية والتصويرية - دار الكتب ط1، ص36.
- 4 . أبو زهرة محمد (1934): الخطابة ، أصولها ، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مطبعة العلوم ، ص274.
- 5 محمد إبراهيم الفيومي (1994): تاريخ الفكر الديني الجاهلي. دار الفكر العربي ط4، ص 352.
- سورة الحج، الآية 78.
- 7 . مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب . راجعه وضبطه عبد الله المنشاوي ، مهدي البحيري . مكتبة الإيمان ج 2 ص 275.
- نفسه ص 276.
- 8
- 9 . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام نسخة إلكترونية من : www.al-mostafa.com ص 1384.
- . الصائغ : نفسه ص 10502
- 11 أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . دار الجيل بيروت . بدون تاريخ .
- الصائغ: نفسه ص 12.34
- الجاحظ: نفسه ج 1 ص 13.52
- نفسه ونفس الصفحة 14
- محمد إبراهيم الفيومي، السابق ص 478. 15
- أبو بكر العزاوي (1992): نحو مقارنة حجاجية للاستعارة ضمن المناظرة . عدد 4 . السنة 2. ماي. 1992. ص 81. 16
- 17 الأصفهاني: الأغاني ج 3 / 355 وما بعدها، نقلا عن: فضل بن عمار . العماري (2007): الحنيفية في الشعر الجاهلي. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية . الحولية 28 2007/ ص 65.
- 18 سيرة ابن هشام ج 1/ 355، نقلا عن الحنيفية في الشعر الجاهلي، م س، ص 241.

مراجع البحث:

- القرآن الكريم برواية ورش.
- أبوزهرة محمد (1934): الخطابة ، أصولها ، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، مطبعة العلوم .
- إحسان عباس (1962): شرح ديوان لبید بن ربیعة العامري، حقق له وقدم له إحسان عباس- الكويت
- عادل جاسم البياتي (1986): دراسات في الأدب الجاهلي، مباحث تراثية ونصوص وتراجم، الجزء الثاني، مكتبة الأدب المغربي، 1986.
- أبي العباس ثعلب: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى (1944) - دار الكتب المصرية. 1944.
- أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . دار الجيل بيروت . بدون تاريخ .
- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام نسخة إلكترونية من : www.al-mostafa.com
- حسام محمد علم (2006): الحنيفية في شعر لبید العامري وأبعادها التعبيرية والتصويرية - دار الكتب ط1
- الخشروم عبد الرزاق (1982) : الغربة في الشعر الجاهلي . منشورات اتحاد كتاب العرب - دمشق . 1982
- مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب . راجعه وضبطه عبد الله المنشاوي ، مهدي البحقيري . مكتبة الإيمان .
- زهير بن أبي سلمى : ديوان زهير بن أبي سلمى . شرحه الأستاذ علي حسن فاعور (1988). دار الكتب العلمية . ط1، بيروت لبنان..
- أبو بكر العزاوي: (1). اللغة والحجاج (2009)، مؤسسة الرحاب الحديثة ، بيروت . لبنان..
- (2). الخطاب والحجاج (2010)، مؤسسة الرحاب الحديثة ط1. بيروت . لبنان.
- 19 الخشروم عبد الرزاق (1982) : الغربة في الشعر الجاهلي . منشورات اتحاد كتاب العرب - دمشق 1982. ص 32.
- 20 القالي أبو علي : الأمالي، دار الكتب المصرية ط2/1926 . نسخة الكترونية من المكتبة الشاملة . ج1/153.
- 21 جزيرة العرب قبل الإسلام، نقلا عن طقوس محمد سهيل (2009): تاريخ العرب قبل الإسلام، ط1. دار النفائس . ص 118.
- 22 عادل جاسم البياتي (1986): دراسات في الأدب الجاهلي، مباحث تراثية ونصوص وتراجم، الجزء الثاني، مكتبة الأدب المغربي، 1986. ص 118.
- 23 نفسه ص 120.
- نفسه ص 122. 24
- نفسه ص 122. 25
- نفسه ص 123. 26
- الرافعي : المرجع السابق ج2 ص 114 27
- نفسه ص 122.. 28
- الصائغ: م س ص 429 29
- الرافعي : م س ص 124. 30
- حسام محمد علم: م س ص 56. 31
- نفسه ص 117. 32
- 33 شرح ديوان لبید بن ربیعة العامري، حقق له وقدم له إحسان عباس- الكويت 1962 م. ص 32.
- الصائغ : م س ص 412. 34
- 35 ثعلب أبي العباس : شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - دار الكتب المصرية. 1944. ص 13 من التقديم.
- نفسه ص 63. 36
- البياني: م س ص 120. 37
- 38. الرافعي : م س ج2 ص 215

- (3). نحو مقارنة حجاجية للاستعارة
(1992) ضمن المناظرة . عدد 4 .
السنة 2. ماي. 1992
- فضل بن عمار . العماري (2007): الحنيفية في الشعر
الجاهلي. حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية . الحولية
2007/ 28
- عبد الإله . الصائغ (1994): الأدب الجاهلي وبلاغة
الخطاب (الأدبية وتحليل النص) دار الفكر المعاصر ،
ط1، صنعاء .
- طقوس محمد سهيل (2009): تاريخ العرب قبل الإسلام،
ط1. دار النفائس .
- محمد ابراهيم . الفيومي (1994): تاريخ الفكر الديني
الجاهلي. دار الفكر العربي ط4.
- القالي أبو علي : الأمالي، دار الكتب المصرية
ط2/ 1926 . نسخة الكترونية من المكتبة الشاملة .